

الإسلام والنظام



إنَّ للنظام أهميته في حياة هذا الكون الذي خلقه الله - سبحانه - بجميع مكوناته: مادية ومعنوية، مرئية وغير مرئية. وفي الإشارة إلى صنع الله الحكيم يقول الله في القرآن الكريم في سورة الرعد: (وَكَُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِإِمْقَادٍ) (الرعد / 8). وفي سورة القمر: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر / 49). وسنجد في آيات القرآن الكريم الكثير من العبارات والإشارات التي تحبذ النظام والتنظيم وتحث عليه. ففي سورة الأنبياء: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (الأنبياء / 33). وفي سورة يس إيضاح لمعالم حركة التنظيم التي أجملت في هذه الآية، وذلك في قول الله سبحانه: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ) * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرًا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْزِعُ عَنْهَا أَنْ تَرُدَّ وَالْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس / 37-40). وفي شأن بني الإنسان كان تنظيم القرآن وتقنيته للحقوق، وتوقيته للأمور حتى يتعلم الناس النظام والالتزام بتنظيم شؤونهم، فلا يقيمون بناء إلا بعد دراسة موقعه ومنافعه، ولا يذيعون فكراً إلا بعد أن يحصوه ويستظهروا غلبة نفعه للمجتمع. وهذه مُثُلٌ من توقيات القرآن؛ حثاً على النظام وعلى الوقوف عنده: ففي سورة الرعد: (وَمَا كَانَ لِلرَّسُولِ

أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (الرعد / 38). وفي سورة المؤمنون: (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) (المؤمنون / 71). وفي سورة العنكبوت: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهَمٌ لَا يَشْعُرُونَ) (العنكبوت / 53). نظام دقيق، لا يتأثر بالهوى، وتوقيت لا يتقدم ولا يتأخر باقتراح إنسان ولا بتدخل أية قوة سوى سلطان الله وقدرته، وإغضاء عن اقتراح الضالين من الأمم على الأنبياء آيات يطالبون بها، فكان الجواب كما نوهت عنه تلك الآيات أن كل شيء عند الله بمقدار، وله وقت معلوم. ولقد ساق القرآن هذه الأمثال وغيرها توجيهاً وتعليماً لبني الإنسان حتى ينظموا شؤونهم، ويواجهوا المشكلات بالنظام وبالتمسك به إلى أن تظهر ثمرته أو تنكشف عيوبه فتواجه بالإصلاح عن تجربة.. وإذا كان القرآن الكريم قد أبرز أن النظام أمر قائم وعامل مؤثر في كل أرجاء هذا الكون (مُنْعَ اللَّهُ لَعَذَابِ أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ) (النمل / 88). فإنَّه بهذا يدعو الناس كافة والمسلمين خاصة أن يأخذوا منه معالم النظام والتنظيم لكل شؤونهم. ففي سورة طه وجه الله آدم أباً البشر إلى تنظيم السلوك والفكر عند ما أهبطه إلى الأرض في قول الله سبحانه: (وَإِمَّا مَّا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ دُونِ هُودٍ فَامْنِ اتَّبِعْ هُودًا وَلَا يَمْضِلْ وَلَا يَشْقَى) (طه / 123). ومعنى هذا أن اتباع هدى الله، والاسترشاد بنظامه يصون الإنسان من ضلالات الأفكار والآراء المتشعبة المصادر والمسالك، ويحميه من الهموم والأوهام التي ترهقه نفسياً وجسدياً ذلك أن القرآن حريص دائماً على أن يقود الناس إلى الخير ويهديهم إلى الرشد. ففي سورة المائدة دعوة إلى اتباع أمر الله ورضوانه، ذلك قول الله تعالى سبحانه: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ اتَّبِعْ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (المائدة / 15-16). وفي سورة الإسراء: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّهِ هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء / 9). إنَّ الإسلام في كتابه القرآن الكريم وفي سنة رسول الله (ص) قد أمر بالنظام وبالتنظيم وحث على هذا بالعبارة والإشارة؛ حتى تستقيم حياة الأمة على أساس متين، وترتب مطالبها الملحة بحسب أولوياتها وصولاً إلى حل مشكلاتها الاجتماعية والاقتصادية بدلاً من الارتجال والتواكل والتردد. إنَّ الإسلام يحثنا على النظام والحزم والعزم بعد الأخذ بالأسباب؛ إذ كل أولئك مؤدَّ إلى الصلاح والفلاح لنقرأ توجيه الله للرسول (ص) في سورة آل عمران: (فَإِمَّا يَنْزَغُ مِنَ اللَّهِ لَعْنَتٌ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّامًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَنفَضَّصُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا

عَزَمْتِ فَتَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران/ 159). فخذوا - أيها المسلمون - مبدأ النظام أساساً لحياتكم وحافظوا على التزامه في كل أموركم تسعدوا فإنَّه من أمور دينكم وتعاليم نبيِّكم. المصدر: كتاب منهجُ الإسلام في التربية والإصلاح